اليسار العربي: أزمة المشروع، أمْ أزمة القائمين عليه؟

□ هشام البستاني

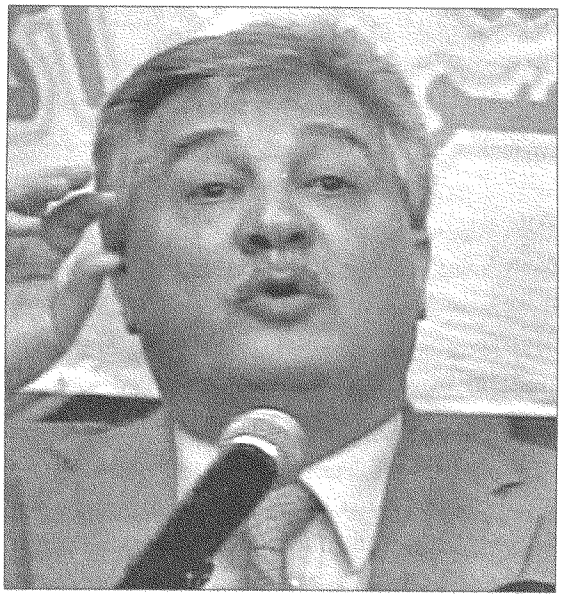

الحديث عن المشروع العلمانيّ/ الديمقراطيّ/ اليساريّ في العالم العربيّ حديث عن أزمة. وتتجلّى هذه الأزمة من خلال أمرين:

- الأول هو التساؤل عن وجود هذا المشروع بشكل متكامل، لا كمجرّد مجموعةٍ من المقولات المفكّكة، والمتناقضة بعضها مع بعض ومع الأساس الذي تدّعي الانبثاقَ عنه. ونستدلّ على هذا الأمر من خلال التيّارات والأحزاب والأفراد الذين يَحسبون أنفسَهم على هذا المشروع لكنهم يتعاملون معه بنفعيّةٍ وشعبويّةٍ وانتقائيّة، مبتعدين عن جوهره وجدليّته، ومستنكفين عن خوض الصراعات الكبرى من أجل إنتاجه، ومنفصمين عن القيم التي يدعون إليها.

- الثاني هو ضعف نفاذ هذا المشروع ومقولاته إلى عمق البنى الاجتماعيّة ذات المصلحة في إنجازه، وانعدامُ وجود حامل اجتماعيّ يتبنّى قيمَه. فأغلب مَن يَحسبون أنفسهم جزءًا من هذا التيّار هم من الطبقة الوسطى، وينجذبون إلى «الانفتاح» والتحرّر الاجتماعيّ الجزئيّ، من دون أن ينجم هذا الارتباطُ عن أزمة وجوديّة/معرفيّة (انسلاخ طبقيّ كامل) أو عن وعيٍ ناتجٍ من تهميش وقمع اقتصاديّين/اجتماعيين حقيقيين (وعيٍ طبقيّ). لهذا السبب، يأخذ خطابُ اليسار هنا شكلاً ليبراليًّا اجتماعيًّا لا أكثر؛ في حين تميل الفئاتُ المسحوقةُ إلى المحافظة الاجتماعيّة والدينيّة، وتشكّل الجمهورَ العريضَ للتيّارات الدينيّة.

يضمّ المشروعُ العلمانيّ/ الديمقراطيّ/ اليساريّ طيفًا واسعًا من الأطروحات المتقاربة. لذلك سأحصر هذا المقال بالتيّار «اليساريّ»، وهو بدوره يضمّ طيفًا واسعًا من الشيوعيين والقوميين والتقدّميين بشكل عامّ. وقد كَشفت الانتفاضاتُ الشعبيّة العربيّة عن الأزمات الكبرى والبنيويّة التي تعصف بهذا التيّار، وعن تناقضاته وادّعاءاته، وخوفِه من حركة التاريخ، وتبعيّتِه للنظام العربيّ أو ارتكازه في تحقيق «مشروعه» إلى تدخّل القوى الدوليّة التي يُفترض فيه أن يناهضها. ومن واقع هذه الانتفاضات (التي لم يكن للأحزاب اليساريّة أو غيرها، عامّةً، دورٌ كبيرٌ في إشعالها أو في صيروراتها اللاحقة)، نحدّد مجموعة معطياتٍ قد تشكّل مدخلاً لفهم الأزمة وتجاوزها.

اعترفت الأحزابُ اليساريّة التي نشأتْ على فكرة «مناهضة الاستعمار» بمخْرجات الاستعمار المباشرة (الدولة القطْريّة)، وصارت تتقبّل المواقفَ المناقضة لفكرة وجودها باعتبارها «خصوصيّات».

الضعف النظريّ العامّ وضعف الإنتاج المعرفيّ

نشأ اليسار في العالم العربيّ في سياقات التحرّر من الاستعمار، وتَشكّل خطابُه أثناء مرحلة «التحرّر الوطنيّ» بعد الحرب العالميّة الثانية وصعود الاتحاد السوفيتيّ في مواجهة الولايات المتحدة. لكنّ هذا الخطاب لم يتطوّر لعدة أسباب، منها: أ) عدمُ إنجاز التحرر الوطنيّ حتى الآن، وذلك لاستحالته موضوعيًّا في حدودِ أقطارٍ صمّمها الاستعمارُ لتكون، سلفًا، تابعةً، ومشوَّهةً اجتماعيًّا، ومفرغةً من إمكاناتها التحرريّة. ب) عدم بروز مفكّرين، باستثناء مهدي عامل وسمير أمين وحفنةٍ آخرين، يغوصون في البنى والتشكيلات الاجتماعيّة والاقتصاديّة ويحدّدون الفئات ذات المصلحة في التغيير. ج) البنية القمعيّة الستالينيّة للأحزاب اليساريّة العربيّة التي ابتعدتْ عن تمكين التفكير النقديّ والنقاش النظريّ، واقتصر التثقيفُ الحزبيّ في أحسن الحالات على ترديد توجّهات المكتب السياسيّ والأمين العامّ بصفتها قراراتٍ ينبغي التعاملُ معها كما يتعامل أتباعُ التيّارات الدينية مع تفسيرات مشايخهم للنصوص الدينيّة.

الأصل أن ينجم الخطابُ السياسيّ عن أرضيّات معرفيّة، وإلّا أصبحت الممارسةُ السياسيّة عشوائيّة، مزاجيّة، غيرَ منتجةٍ على المدى الطويل. ونستطيع أن نرى تأثير ذلك في الانتفاضات العربيّة: ففي غياب أرضيّات معرفيّة للتحرّك الجماهيريّ، وفي غياب تنظيم قادرٍ على تحقيق هذه الأرضيّات، تصل الانتفاضاتُ إلى التأزم، ولا تستطيع «إسقاطَ النظام» لعدم وجود نظام بديل! كما نستطيع أن نرى كيف تسلّل احتقارُ «التنظير» إلى الأجيال الجديدة من النشطاء، وصاروا يريدون أن «يتحرّكوا في الشارع» فقط من دون «إضاعة الوقت في التنظير،» متناسين أنّ التنظير هو الذي يحدّد هدفَ أيّ تحرّك، وإلّا غدا عشوائيًّا وقابلاً للتوظيف من قِبل الخصوم.

النزوع نحو التفسّخ والانفصال

ربما عانت تنظيماتُ اليسار العربيّ أكبَر عدد من التفسّخات والانفصالات. فالحزب الشيوعيّ السوريّ صار حزبين، سوريًّا ولبنانيًّا، عام ١٩٦٤؛[١] والحزب الشيوعيّ الأردنيّ انفصل لاحقًا إلى حزبين، أردنيّ وفلسطينيّ؛[٢] وحركة القوميين العرب انقسمتْ إلى ثلاث جبهات فلسطينيّة على الأقلّ؛ وحزب البعث صار حزبين حاكمين متقاتلين في سورية والعراق، بل اصطفّ الأوّلُ مع «العدوّ القوميّ» (إيران) في حربه على «الشقيق القوميّ» (العراق) في حرب الخليج الأولى، ثم حاربه تحت قيادة «العدوّ الإمبرياليّ الأميركيّ» في حرب الخليج الثانية.

إضافةً إلى ذلك فإنّ العمل اليساريّ موبوء دائمًا بـ «الخصوصيّات القُطريّة،» يشرعن بها التقسيماتِ الاستعماريّةَ باعتبارها ذاتَ طبيعة متمايزة. هكذا اعترفت الأحزابُ اليساريّة التي نشأتْ على فكرة «مناهضة الاستعمار» بمخْرجات الاستعمار المباشرة (الدولة القطْريّة)، وصارت تتقبّل المواقفَ المناقضة لفكرة وجودها باعتبارها «خصوصيّات». فمثلاً تقبّلتْ معظمُ الأحزاب الشيوعيّة العربيّة وجودَ الحزب الشيوعيّ العراقيّ في «مجلس الحكم» الذي أنشأه الاحتلالُ الأميركيّ في العراق، ولم تقم بنقد هذا الموقف؛[٣] وما زال الحزبُ شريكًا منذ ذلك الحين في «العمليّة السياسيّة» التي نشأتْ وتستمرّ برعاية الاحتلال! مثال صارخ آخر هو الموقف من النظام السوريّ؛ فالعديد من اليساريين (والقوميين) لم يتوانوْا في دعم هذا النظام، الذي ينطبق عليه ما ينطبق على بقيّة الأنظمة العربيّة من رذائل (كالفساد والقمع والتوجّه نحو لبرلة الاقتصاد والاعتراف بشرعيّة وجود إسرائيل)، بحجّة أنه حالةٌ خاصةٌ من «الممانعة.»

---

(١) «تاريخ الحزب الشيوعيّ السوريّ،» صحيفة **النور** (أسبوعيّة يصدرها الحزبُ الشيوعيّ السوريّ الموحّد)، ٢٠٠٧/١١/٢٩.

(٢) مجلة **السجل** (الأردن)، ١ حزيران ٢٠١٠.

(٣) وهو ما أدى في أحد تداعياته إلى انشقاق في الحزب الشيوعيّ الأردنيّ عام ٢٠٠٥
3oda2_120105.htm/http://articles.abolkhaseb.net/maqalat_mukhtara/arabic/0105

خطأ ارتباط اليسار بالقوميّة العربيّة

كثيرةٌ هي الدراسات التي تناولتْ أثرَ نماذج الدولة القوميّة الأوروبيّة، التي هي تعبير عن مصالح الرأسماليّة ضمن نطاق جغرافيّ محدّد، في نشوء الحركة القوميّة العربيّة منذ أواسط القرن التاسع عشر. التيّار القوميّ العربيّ لم ينشأ استجابةً لبرجوازيّة رأسماليّة وطنيّة تطمح إلى مدّ سيطرتها على جغرافيا محدّدة تشكّل سوقها القوميّة. ولذلك ـ وخارج مشاعر الضيق من عسف الدولة العثمانيّة والرغبة في الاستقلال عنها، وخارج محدّدات التاريخ المشترك واللغة المشتركة و«الشعور» القوميّ ـ لم ينبثق التيّار القوميّ العربيّ عن ضرورات **ماديّة تاريخيّة**، ولم يُنتجْ فكرًا بعيدًا عن الرومانسيّات والمشاعر النبيلة والمحدّدات الذاتيّة والطموحات المستقبليّة إلى بناء «دولة موحّدة قويّة» تضع العربَ مرةً أخرى في مكانهم الصحيح على خارطة العالم السياسيّة والاقتصاديّة (على اعتبار وجود دولة عربيّة قويّة في الماضي هي الدولة الأمويّة على الأغلب).

هي أحلام القوة والإمبراطوريّة، إذن، لا أحلام العدالة والمساواة بين البشر. وحتى الآن، لا يستطيع القوميّ العربيّ أن يجيب على تساؤل: مَن هو العربي؟ وكيف «يتميّز» عن غيره؟ وما هو الموقف من غير العرب الذين يشكّلون جزءًا أصيلاً وطبيعيًّا من المنطقة؟ إن أيّ إجابة منطقيّة على هذه الأسئلة ستؤدّي إلى إلغاء القوميّة من أساسها بحيث تنتقل الإجابة إلى المربّع الإنسانيّ، أو إلى إعتماد المفهوم العرقيّ أو الثقافيّ لتعريف القوميّة العربيّة ـ وكلاهما مفهومان إقصائيّان يقودان إلى الهيمنة والفاشيّة.

الحقيقة أنّ الخطاب القوميّ العربيّ يستبطن عنصريّةً واستصغارًا لغير العرب. فالقوميّة دعوة إلى تأكيد هويّة الأمّة وشخصيّتها الخاصّة المميّزة أمام الغير؛ وهي فكرة وحركة نضاليّة تهدفان إلى بناء دولة **خاصّة بالعرب**.[1] وبالإمكان التقاط هذا الأمر بوضوح عندما يأتي الحديث عن الإيرانيين (الذين تتمّ شيطنتُهم بمصطلحات «الصفويين» و«الفرس» و«البويهيين») أو الأتراك (يشيطَنون بمصطلحيْ «الطورانيين» و«السلاجقة») أو الأكراد (الذين يصوّرون على أنهم عملاء خالصون لـ«إسرائيل») أو الأمازيغ (الذين تُخصّص دراساتٌ كاملةٌ لإثبات أصلهم العربيّ وكأنّ الإنتماء إلى العِرق العربيّ سيزيدهم شرفًا وسيقنعهم بالتخلّي عن ثقافتهم لصالح مقولات القوميّة العربيّة). كما يعادي الخطابُ القوميُّ، في أغلبه، اليهودَ واليهوديّة، لا الصهاينةَ والصهيونيّة، ويَعتبر (شأنَ التيّارات الدينيّة) أنّ الصراع في فلسطين هو مع اليهوديّة **كدين لا** مع الصهيونيّة **كحركة استعمارية استيطانية**.[2]

وفي حين يخرج يساريو العالم في تظاهرات وفعّاليّات مؤيّدة للحقوق العربيّة (فلسطين، العراق، انتفاضات الربيع العربيّ)، يَندر أن تخرج مظاهرات عربيّة مؤيّدة لقضايا شعوب أخرى في العالم. كما يَندر أن يتبنّى اليسار العربيّ قضايا مثل حقوق العمّال الوافدين، أو عاملات المنازل الوافدات.

الخطاب القوميّ انعزاليّ في جوهره. فعلى الرغم من أنّ عصمت سيف الدولة، مثلاً، يبدأ تعريفَه للقوميّة بأنها «لا تعني ... الانعزالَ عن القضايا التي تمسّ المجموعة الإنسانيّة ككلّ أو أيّة مجموعة إنسانيّة منها،» فإنّه يؤكّد هذا الانعزالَ حين يحدّد الشراكة في القضايا الإنسانيّة «بقدر ما تؤثّر في الوجود القوميّ وحركته» ـ أي إنّ الاعتبار الإنسانيّ يتحدّد بمعايير المصالح القوميّة لا العكس. وهو يؤكّد أنّ «الوجود القوميّ مجرّد وجود خاصّ. فهو إضافةٌ إلى، وليس انتقاصًا من، وجود الجماعات الإنسانيّة الأخرى. وهكذا تكون "القوميّة" علاقة قبول واحترام للوجود الخاصّ لكل مجتمع من المجتمعات الإنسانيّة»[3] ـ وهو بهذا يعرّف الإنسانيّة بأنّها مجموعة من دوائر «الوجود الخاصّ» لكلّ مجموعة قوميّة، وهو مفهوم انغلاقيّ ينطبق على أيّ دائرة من دوائر الوجود الانغلاقيّة، مثل الطائفة أو العشيرة.

والقوميّة في مقولاتها حول «الأمة» لا تحمل بعدًا طبقيًّا واضحًا (تمييزًا بين المضطهَد والمضطهِد)، وهي تواجه فراغاتٍ معرفيّةً كثيرةً بدليل استعارتها النظامَ الاقتصاديّ الاشتراكيّ والعلمانيّة أول الأمر، ومن ثم تحوّلها إلى الليبراليّة واقتصاد السوق في بعض النماذج والحملات الإيمانيّة والمؤتمرات «القوميّة الإسلاميّة» في نماذج أخرى.

لهذا، عمل الخطابُ القوميّ على توليد الفاشيّة الإثنيّة (في مواجهة الفرس والأتراك والأكراد حاليًّا) والقُطْريّة (في الأردن مثلاً انتقل بعضُ «القوميين» و«اليساريين» إلى الدفاع عن الدولة القطْريّة وهويّتها وإلى تعزيز الانقسام المفبرك بين الأردنيين من أصول شرق أردنيّة والأردنيين من أصول فلسطينيّة، خصوصًا بعد الانتفاضة السوريّة).[4] وأدّى ذلك إلى تعزيز الانقسامات الإثنيّة والطائفيّة والمناطقيّة والعشائريّة، وسهّل استغلالها من قبل الأنظمة العربيّة أو القوى العالميّة.

هكذا فشل اليسار (بتأثير الطروحات القوميّة) في التأسيس لمشروع تحرّريّ يضمن العدالةَ لجميع شعوب المنطقة العربيّة، بما فيها ما يُطلق عليها اسم «الأقليّات العرقيّة» كالأكراد والأمازيغ، الذين هم مكوّن أصيل من مكوّنات المنطقة وجزءٌ أساسٌ من مشروع تحررها.

---

(١) هاني الهندي، **الحركة القوميّة في القرن العشرين (دراسة سياسيّة)** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة، ٢٠١٢).

(٢) إبراهيم علّوش، «الصهيونيّة هي الابنة الشرعيّة لليهوديّة،» http://www.freearabvoice.org/arabi/maqalat/AlSohyoneyehHeyaAlebnaAlshar3eyalelyahoodeyeh.htm؛ وموفّق محادين، «الصهيونيّة خلفنا واليهوديّة أمامنا،» **العرب اليوم**، ٢٠٠٧/٧/٨ http://www.old.alarabalyawm.net/pages.php?articles_id=1831؛

(٣) عصمت سيف الدولة، **نظريّة الثورة العربيّة**، ج ٣ (بيروت: دار المسيرة).

(٤) حول نقد هذا التيّار، أنظر المقالة المهمّة لجوزيف مسعد، «الأردن بين الوطنيّة والشوفينيّة،» **الأخبار**، ١٠ أيلول ٢٠١٢، http://al-akhbar.com/node/166751

يعاني اليسار العربيّ رهابَ المثليين، ويصادر حقّهم في خياراتهم الجنسيّة، إنْ لم يعتبرهم (شأن التيّارات الدينيّة تمامًا) مؤامرة إمبرياليّة/يهوديّة

الخجل من المشروع الاجتماعيّ لليسار، والحريّات الاجتماعيّة، وحريّة الرأي والتعبير

الأصل في اليسار أنه مدافعٌ شرسٌ عن الحريّات الاجتماعيّة وحريّة الرأي والتعبير. لكنْ، ولعدّة اعتبارات،[1] يخجل اليسارُ من برنامجه الاجتماعيّ، هذا إنْ كان مقتنعًا به أساسًا (أستثني هنا اليسارَ في المغرب العربيّ). وهو يخجل من الدفاع عن حريّة الرأي والتعبير، خصوصًا في ما يتعلّق بالأديان الإبراهيميّة ونقدها. حريّةُ الرأي والتعبير تأخذ عنده معنى سياسيًّا فقط. لا حديث عن إعادة إنتاج علاقات القوة في الوحدات الاجتماعيّة مثل الأسرة، ولا عن نقد الدين بشكل واضح وتاريخيّ ومفصّل.

وفوق كلّ ذلك، يعاني اليسار العربيُّ رهابَ المثليين، ويصادر حقَّهم في خياراتهم الجنسيّة، إنْ لم يعتبرهم (شأن التيّارات الدينيّة تمامًا) مؤامرة إمبرياليّة/يهوديّة.[2] هذا على الرغم من أنّ أغلب تنظيمات المثليين في العالم تؤيّد قضايانا وتشارك بفعّاليّة في الأنشطة المؤيّدة لفلسطين والعراق (قبل الاحتلال وأثناءه) وما إلى ذلك.

الدفاع عن النظام العربيّ ودولته القطريّة

في العام ٢٠٠٥، وانطلاقًا من استحالة إنجاز مشروع تحرّر يستند على الدولة القطريّة التي صمّمها الاستعمارُ لإفراغها من إمكانيّاتها التحرّريّة، حاولتُ مع رفاق، من مختلف الأقطار العربيّة، إطلاقَ شكل تحالفيّ مفتوح مناهض للإمبرياليّة: «نحو تحالف شعبيّ عربيّ مقاوم.» وعلى إثر اجتماع تأسيسيّ عُقد في القاهرة، أُطلقتْ وثيقة تحدِّد أرضيّته الفكريّة/السياسيّة،[3] وقّع عليها عشراتُ الأفراد والتنظيمات اليساريّة والقوميّة. واستمرّ العمل على هذا المشروع حتى عام ٢٠٠٨، حين انتهى نتيجةً لكسل بعض المجموعات المشاركة، ولمحاولة بعضها تجييرَ العمل لصالحها، ولعدم انسجام أخرى مع الوثيقة التي حَضَروا للمشاركة بناءً عليها، إضافةً إلى المؤامرات المتعلّقة بالمواقع «القياديّة.» ولم يبقَ من «التحالف» سوى اللائحة الإلكترونيّة التي تحمل اسمه.

المهمّ في هذا الموضوع هو أنّ الفقرة الثانية من الوثيقة نصّت على ما يأتي: «الطبقات الحاكمة والنظم المسيطرة في الأقطار العربيّة... تابعة للإمبرياليّة وتحقّق مصالحها، ولا يمكن أن تكون في المعسكر المناصر لحقوق الشعوب. وما يسمّى 'إصلاحًا' تريد تنفيذَه هو كذبة كبرى. وعليه، فإنّ النضال ضدّها هو جزء هامّ من النضال ضدّ الإمبرياليّة.»

هكذا كان الفهم الاستراتيجيّ اليساريّ (والقوميّ) لواقع الأنظمة العربيّة منذ أواسط القرن الماضي. لكنْ، إنْ راجعنا الآن قائمة الموقّعين على الوثيقة، وتابعنا ما يُرسل حاليًّا إلى قائمتها الإلكترونيّة، فسَنعجب من مدى التغيّر في «الفهم الاستراتيجيّ» الذي أصاب بعضَ المشاركين في المشروع حين صار النظامُ السوريّ نظامًا مقاومًا (لا ممانعًا فقط)، وتحوّلت الانتفاضاتُ العربيّة (باستثناء الانتفاضة البحرينيّة) ـ وبأثر رجعيّ (أيْ بعد الانتفاضة السوريّة) ـ إلى مؤامرات أمريكيّة إسرائيليّة سعوديّة قَطريّة، وتحوّلتْ شعوبٌ بأكملها (كان ينتظرها اليساريون بشغف لتثور) إلى شعوبٍ عميلةٍ تُدار من الخارج!

هكذا تحوّل «يساريون» (و«قوميون») إلى مدافعين شرسين لا عن النظام السوريّ فحسب، بل أيضًا عن الدولة القطريّة العربيّة وأنظمتها التي طالما عارضوها بصفتها إفرازاتٍ لمرحلة الاستعمار. وصار سقوطُ النظام السوريّ (وسقوط «الدولة» القطريّة العربيّة بشكل عامّ) يعني «الفوضى،» وكأنّ النظام الرسميّ العربيّ لم يكن فوضى مضغوطةً بقوة القمع! وصار للنظام العربيّ «دولة،» رغم أنّ «الدولة» العربيّة المعاصرة لا علاقة لها بالدولة المعاصرة: ليس

(١) أهمُّها التحالفُ ما قبل الانتفاضة السوريّة مع التيّار الدينيّ، وعدمُ الرغبة في الاصطدام بـ «المفاهيم العامّة للمجتمع» (نتذكّر هنا الخطابَ الرسميّ عن وجوب عدم خرق الآداب العامّة والنظام العامّ!).

(٢) موفّق محادين، «المثليّة الجنسيّة،» **العرب اليوم**، ٢٠١٠/٨/١٦، http://www.old.alarabalyawm.net/pages.php?articles_id=12884

(٣) http://www.aohrs.org/modules.php?name=News&file=article&sid=434

فيهـا إلّا إرادة الحاكـم، بلا قانون، بلا مؤسّسـات حكم، بلا عدالة، بلا أيّ شيء؛ بـل إنّ رئيس «الجمهوريّة» صار يورّث ابنه الجمهوريّةَ! أهذه دولٌ أمْ فوضى؟ عمّ يدافع «اليساريون» (و«القوميون») إذًا؟ ولأنّ المشـروع اليساريّ لا يمتلـك مشروعًا فكريًّا مؤسّسًا، فقد صار كلُّ مَن يريد أن يقول عن نفسه إنه يساريّ يعامَل كذلك ولو تناقضتْ أطروحتُـه مع مبادئ اليسـار الأساسيّة. هكذا صرنـا نرى يساريين يطالبـون بعـزل اللاجئيـن السورييـن فـي الأردن، [1] وبمنعهم من النشـاط السياسيّ، وبـأن تتدخّل الدولة (أي النظـام الأردنيّ) من أجل ضبط ذلك بالقوة.

فشـل التنظيمـات اليساريّـة فـي إشعـال الانتفاضـات والمساهمة في تحوّلاتها

لـم تكـن للتنظيمـات اليساريّـة مساهمـة رئيسـة فـي الانتفاضات العربيّـة، بل العكس: فعبر سنوات مـن العمل «الشرعيّ» ساهمتْ في خـداع الناس بإمكانيّة «التغييـر من الداخل،» وفـي إسباغ هالةٍ من الشرعيّـة والديمقراطيّة الكاذبـة على ممارسـات الأنظمة القمعيّة والتفتيتيّة والفاسدة.

جاءت الانتفاضات عفويّة، وتصاعـدتْ بشكل تضخميّ، وبادرتْ بها شريحـةٌ لم تكن على بال أحـد (شباب الطبقـة الوسطى) ولطالما اتُّهمـت بـأنْ لا أمـل يُرجـى منها. هكـذا أحسّ «اليسـار» بالعجز، واكتشف خواءه المعرفيّ والسياسيّ والإستراتيجيّ، واصطدم بضعفه التنظيمـيّ وانعدام امتداده الجماهيريّ وعدم قدرته على المساهمة فـي صناعة الواقع الجديد. فما العمل؟ تحوّل إلى اتهام الانتفاضات العربيّـة بالعمالة، وحوّلها إلى جـزءٍ من مؤامرة كونيّة، وبات يناضل مـن أجل بقاء النظام الرسميّ العربـيّ و«دولته» القطُرية! والجيوش التـي كانت توصف بأنها لحماية حـدود «إسرائيل» ولحماية الأنظمة العربيّـة صـارت، وبضربـة تحوّليّة يساريّـة، الضامـن الأول للوطن وتماسكـه؛ وصـارت دول «سايكـس ــ بيكو» وأنظمتهـا العميلة دولاً ينبغـي الدفاعُ عنها فـي وجه الفوضى؛ بل وصل الأمـرُ بأحدهم إلى إنكار التاريخ في ما يتعلّق بالنظام السوريّ، فأضحى نظامًا ملائكيًّا لـم يساعـد على ارتـكاب مجزرة تل الزعتـر، ولم يذهـب إلى حفر الباطن لغزو العـراق تحت قيادة الولايات المتحدة، ولم يتحالف مع حلفـاء «إسرائيـل» في لبنان أثناء الحرب الأهليّـة، ولم يدخل لبنان بمباركة أمريكيّة/إسرائيليّة، ولم يذهب إلى مؤتمر مدريد «للسلام» مع «إسرائيل»، ولم يكن قابَ قوسين أو أدنى من توقيع معاهدة سلام مـع «إسرائيـل» عام ٢٠٠٨، بل هـو يعمل ليلًا نهارًا مـن أجل تحرير الجولان!

يقابـل هـذا الوجه مـن «اليسار» وجهٌ آخـر من «اليساريين» الذين تحالفـوا مـع الولايـات المتحـدة والقـوى الإمبرياليّـة، النقيضِ الموضوعـيِّ والكامل لليسار، في سياق عملية «التحوّل الديمقراطيّ» قبـل الانتفاضـات العربيّة وبعدهـا. وقد كان السبّاق فـي هذا الأمر الحـزب الشيوعـيّ العراقـيّ، الذي شـارك في مجلس بريمر الذي نصّبـه الاحتلالُ الأميركيُّ في العراق، واستمرّت شراكته في النظام السياسـيّ الطائفـيّ العميـل للاحتلال بعدهـا. ثم لحـق بنموذجه آخـرون بعد عقـدٍ من الزمـن، خصوصًا في ليبيـا وسورية، دافعين تناقضَهم إلى الاكتمال عبر العمل مع الأنظمة التي طالما شخّصوها بأنها «رجعيّـة» و«عميلة،» ومع المجموعات الدينيّـة والتكفيريّة التي تتناقض فكريًّـا وسياسيًّا مـع اليسار... مـع عدم اغفالنـا أنّ هذا التحالف يجـد جذوره الأوليّة في تحالفات يساريّـة سياسيّة سبقتها مع التيّار الإسلاميّ «المعتدل» مثل الإخوان المسلمين.

الكذب وانعدام المصداقيّة والتلفيق

في المسألـة السوريّة تجلّى كذبُ «اليسار» وتلفيقُه وتدليسُه، واتّضح انعدامُ المشروع لديه، وبانت ميكانيكيّتُه البائسة: «إنْ كانت الولاياتُ المتحدة تريد إزاحةَ بشّار الأسد، فعلينا أن نسانده بغضّ النظر عمّا يمثّلـه. إنها المؤامرة الإمبرياليّة». جميل! لكنْ، هل كان ينبغي علينا مسانـدةُ حسني مبارك حين خرج أوباما مطالبًا إيّاه بالتنحّي؟! هذا هو المنطـق الميكانيكـيّ الردّ-فعلـيّ (= الرجعـيّ) لـ«يسار»! وفي الجانـب الآخر، ثمة «يسار» لا يقلّ تدليسًا: فهو، إذ يعجز عن تحقيق مشروعه «التقدميّ العلمانيّ،» لا يرى ضيرًا من «التعاون» مع الأنظمة الرجعيّة العربيّـة (كقطر والسعوديّة) أو بممثّليهـا، أو «التعاون» مع حلـف الناتو والقوى الإمبرياليّة الدوليّة (الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبيّ)، أعداءِ اليسار الأساسيين.

خاتمة: هل هذا «يسار»؟

ليس هذا يسارًا. هذا خواء معرفيّ لا يستطيع أن ينتج خطابًا سياسيًّا منسجمًا مع نفسه، ومع المنظومة التي يدّعي الانتماءَ إليها. ما يوجد علـى الأرض هو تنظيمـاتٌ «يساريّة» وأفـراد «يساريون» يشبهون في تركيبتهم الأنظمةَ العربيّةَ: مداهنون ومداورون ويجيدون لعبَ السبع ورقات والمنـاورة والتآمر. أمناء عامّون مدى الحياة يأتون بأبنائهم أو زوجاتهـم ليَرِثـوا الحِزبَ. قامعـون للتيّارات النقديّـة وللتجديد. يتجنّبون الفكر والمعرفة والفلسفةَ والقراءة. يتنصّلون من البرنامج الاجتماعـيّ. يستعينون بنقائضهـم ويشرعنونها: النظـام الرسميّ العربيّ و«الدولة» القطُريّة من جهـة، والرجعيّة العربيّة والإمبرياليّة من جهة أخرى.

الفشـل هو النتيجة المنطقية لـ «مشروع» يقوم على أسس كهذه. هذا ليـس يسارًا. هذه مجموعة من الانفصامـات والعُقد. **اليسار عندنا لم يولدْ بعد.** وهذا مربطُ الأمل.

عمّان

هشام البستاني

قاصّ وكاتب من الأردن. له: عن الحب والموت (٢٠٠٨)، الفوضى الرتيبة للوجود (٢٠١٠)، وأرى المعنى... (بيروت: دار الآداب، ٢٠١٢). والصورتان ص ٦٦ لحميد موسى وپول بريمر.

(١) موفق محادين، «اللاجئون السوريون في الأردن،» **العرب اليوم**، ٢٠١٢/٦/١٩.